

الكرامة

كرامة الوطن من كرامة المواطن

حكام "المناديل الورقية" - رجال تحت النعال

الثلاثاء، 8 أغسطس 2006

د. رعوف عباس

الوطن العربي لم يعرف في تاريخه حقبة تفوق هذه الحقبة ضعفا وهوانا ومذلة، ولم يشهد في تاريخه حكاما يضحون بمصالح بلادهم من أجل منافعهم الخاصة سوى أيام الغزو الصليبي قبل ظهور صلاح الدين وما يجرى اليوم على الساحة العربية يمثل - دون شك - أشد صفحات تاريخ الوطن العربي سوادا، وأكثرها دموية وخذلانا، وأبشعها خيانة وتفريطا. لا يبيد ظلام تلك الصفحة البائسة سوى تلك المقاومة الوطنية المسلحة الشريفة في فلسطين ولبنان التي أثبتت أن في الأمة رجالا لا يقبلون العيش الا مرفوعى الهامة موفوري الكرامة، ويذودون بأرواحهم دفاعا عن الوطن.

لقد عرت المقاومة الوطنية الباسلة ما كانوا يظنونه مستورا فظهر حكام العرب أمام شعوبهم على حقيقتهم، وصدق فيهم قول العديد من الكتاب الانجليز والامريكان الذين يعارضون الحرب حين وصفوهم بالدمى التي تحركها الادارة الأمريكية، فمراكز السلطة في بلادنا مسارح للعرائس تلعب أدوارا أعدت نصوصها في البيت الأبيض والخارجية الأمريكية والبنطاجون والمخابرات المركزية، ووضعت أصول تلك النصوص في كواليس الكيان الصهيوني على أرض فلسطين. وما نشهده من حوكة رموز السلطة هنا وهناك انما يعبر عن حركة أصابع من يمسكون بخيوط تلك الدمى "العرائس".

النظم البوليسية التي تفتح كل يوم معتقلا وتعلق مصنعا وتنهب ثروة الوطن وتكتم الأفواه وترى قطعان كلاب الحراسة وتستأسد على المتظاهرين فتعدى عليهم بكل أنواع البطش، ولا تعرف حرمة لشيء ولا حدودا لسلوك بما في ذلك هتك الأعراض، هذه النظم ذاتها التي تستأسد علينا وتذيق الأحرار الشرفاء الهوان هي نفسها تسلك سلوك الفئران المذعورة أمام سادتها الذين يمسكون بالخيوط ولا أقول سلوك الحملان، لأن لهذه الأخيرة نفعا.

في حديث خطير للشيخ حمد بن جاسم آل ثان نائب رئيس مجلس الوزراء ووزير خارجية قطر، ومهندس سياسة التحالف مع أمريكا واسترضاء "إسرائيل" وتحويل بلاده إلى قاعدة أمريكية عسكرية كبرى في الخليج، في ذلك الحديث انتقد الشيخ حمد حكام العرب ومسلكتهم تجاه العدوان "الإسرائيلي" على لبنان قائلا: ان أصدقاءنا (الأمريكان) وزعوا علينا مذكرة بما هو مطلوب منا أن نفعله ازاء هذه "الأزمة" وقام بعض حكام الدول العربية الكبرى بتنفيذ "مطالب الأصدقاء" دون مناقشة أو اعتراض ولم يضعوا في اعتبارهم مصالح أوطانهم أو "مشاعر" شعوبهم وعندما سأله مقدم البرنامج عما اذا كان يعنى بذلك مصر والسعودية رد بأنه لن يسمى أحدا، واستطرد قائلا: ان الصداقة لا تلزمنا بتنفيذ كل ما يطلبه الأصدقاء حتى لو كان ذلك ضد مصالح بلادنا وشعبنا، فصديقك من صدقك لا من صدقك.

ولعل هذا يوضح خلفية البيانات والتصريحات التي صدرت في وقت واحد من الرياض والقاهرة وعمان تدين ما أقدمت عليه المقاومة الإسلامية في لبنان من "توريث" بلادها في مأزق العدوان الصهيوني وتحملها وتحملها وحدها مسؤولياته وتبعاته، وعلى طريقته الفريدة في إتقان أداء الدور، صدرت عن الرئيس حسنى مبارك تصريحات أثارت سخرية الصديق قبل العدو (والعدو هنا للشعب المصرى) مثل وصف الجيش الصهيوني بالأسد عندما قال: هو هو في حد عاقل يحط ايده في بق الأسد؟! أو عندما علق على انقضاء أسبوع دون استطاعة أسد الرئيس التهام المقاومة فقال: إن "طول مدة القتال ليست من مصلحة جيش إسرائيل" لأنها قد تفيد (البتاع) يقصد بذلك حزب الله. هذه البراعة في لعب الدور هدفها اقناع المخرج الأمريكى والمنتج الاسرائيلى بأن سيطر النظام المصرى على طريق الوريث خير ضمان لخدمة النص الامبريالى لصالح الامبراطورية الصهيونى-أمريكية.

وليس غريبا أن يرتبط صدور بيانات المطالبة بوقف اطلاق النار "ولوم" اسرائيل لأن عدوانها تجاوز الحدود، (ولم يقولوا لنا تصورهم لتلك الحدود) فى العواصم الثلاث: الرياض وعمان والقاهرة (والترتيب هنا صحيح ومقصود لأنه يصور حقيقة الأوزان فى الواقع الإقليمى)، ليس غريبا أن يرتبط ذلك بنجاح حزب الله والمقاومة الإسلامية فى الصمود لمدة ثلاثة أسابيع فى وجه عدوان دموى رهيب. وتوجيهه ضربات موجعة لرابع أو خامس قوة عسكرية فى العالم. وارغامه العدو على إيقاف نشاطه الإقتصادى فى الشمال كله، والحاجة الماسة إلى سبيل لإيقاف المقاومة (وليس العدوان) بالشروط التى ترضى محركى الخيوط التى تحدد للعرائس مجال حركتها.

وهكذا طلع الأمير سعود الفيصل ليبدى تعاطفه مع شعب لبنان واستعداد بلاده لتقديم كل دعم لتخفيف معاناته وعندما سئل عن رأيه فيما قيل عن امكانية استخدام "سلاح النفط" فى الضغط لإيقاف العدوان قال: ان النفط سلاح التنمية وليس سلاح الحروب، (ورحم الله الشيخ زايد بن سلطان الذى قال: ان النفط العربى ليس أعلى من الدم العربى، أيام حرب ١٩٧٣، عندما كان المشهد العربى على مستوى الحدث).

وظلع علينا الرئيس حسنى مبارك ببيان أعلن فيه أن مصر تدين "بأقوى العبارات" العدوان الاسرائيلى على لبنان وليعلن عن تقديم المساعدات لتخفيف المعاناة عن شعب لبنان. ولم يذكر كلمة عن "البتاع" (أى المقاومة). كذلك طلع وزير خارجية الأردن ببيان مماثل، ومن يقرأ البيانات الثلاثة يشعر بوحدة الأداء على المسرح، ويحس بأن الفروق اللفظية هنا أو هناك مردها الى الترجمة للنص الواحد الأوحد.

وصاحب ذلك توجه وزيرى خارجية مصر والأردن الى بيروت فى اليوم الثانى والعشرين للعدوان فى مهمة محددة هى مناقشة تكوين قوة الردع الدولى التى تريد اسرائيل حشدها فى جنوب لبنان وعلى الحدود اللبنانية السورية. كان الوزيران، فى حقيقة الأمر - يحملان المطالب الصهيونى-أمريكية على نحو ماجاء بالصحف الأمريكية الصادرة فى نفس اليوم، ولم يشذ عن هذه الجوقة المناضلة فى خدمة المشروع الصهيونى-أمريكى سوى الملك عبد الله الثانى ملك الأردن. فقد سربت الإدارة الأمريكية للصحف فحوى رسالة بعث بها الملك الى بوش يحذره من أن الدرجة التى وصلت اليها العمليات "الإسرائيلية" ضد لبنان سوف تؤدى الى دعم الارهاب فى المنطقة لعدة عقود قادمة، وقد يؤدى الى الاطاحة بالنظم الصديقة (أى العميلة) لأمريكا فى المنطقة بما فيها النظام الأردنى.

لقد كشف الشيخ حمد بن جاسم فى حديثه المتلفز أن "الأصدقاء" وأجندتهم كانت موضوع بحث اجتماع مجلس جامعة الدول العربية على مستوى وزراء الخارجية. وكان على رأس هذه الأجندة ضرورة خروج الاجتماع بادانة لحزب الله مع عدم عقد إجتماع قمة طارئ للنظر فى الأزمة. وقال الرجل انه يأسف لأن اجتماع القمة سوف يعقد فى نهاية الأمر عندما يرى

"الأصدقاء" أن الوقت مناسب لذلك لا لعلاج الأمر بما يحفظ الحقوق العربية والكرامة العربية، ولكن لتبني ما يراه "الأصدقاء" باعتباره حلا عربيا أو بعبارة أخرى: إضفاء الشرعية على الحل الصهيوني-أمريكي وإلباسه الدشداشة والعباءة العربية وتوجيهه بالكوفية العربية والعقال، تماما كما حدث في قمة بيروت التي أقرت مبادرة أمريكية كتبت للأمير عبدالله لتصبح مبادرة عربية للسلام مع "إسرائيل". لم يكتف شارون - عندئذ - برفضها رفضا مهينا، بل قام بالهجوم على مقر ياسر عرفات بمرام الله، وعندما حاول عرفات التحدث الى مؤتمر القمة من خلال شبكة تليفزيونية أمر "الأصدقاء" بعدم تلقي مجلس القمامة العربية الإرسال فصدع الحكام الصناديد بالأمر.

ولعل هذه الطاعة العمياء لأوامر الأصدقاء تفسر غياب الحكام العرب عن مؤتمر القمة الإسلامي الذي عقد في ماليزيا للنظر في العدوان الصهيوني على لبنان، واكتفوا بإيفاد من يمثلونهم من صغار الدبلوماسيين، والممثل على قدر من يمثلته، وكأن الأمر لا يعينهم، أو كأن لبنان بلد يهيم مسلمي آسيا ولايهم البلاد العربية وبلغ الحرص الشديد على عدم المساس " بمشاعر الأصدقاء" درجة كتم أنفاس الجماهير التي خرجت للتظاهر (سلميا) تعبيرا عن ضيقهم بالتواطؤ البيّن للنظم العربية القمعية المقتتدة الى الشرعية مع العدوان الصهيوني-أمريكي على الأمة العربية، وكالعادة كان النظام المبارك في قمة التعبير عن الإخلاص الشديد للأصدقاء عندما واجه المظاهرات بقطعان الأمن المركزي وتم الاعتداء على المتظاهرين وتمزيق ملابس السيدات الفضليات وهناك الأعراض في قلب العاصمة التي كانت - يوما ما - قلبا للأمة العربية، وحصنا حصينا لها. وحدث نفس الشيء في عمان في مواجهة مظاهرات الاحتجاج الشعبي وفي القطيف بالسعودية، بينما خرجت المظاهرات الشعبية الضخمة في أندونيسيا وماليزيا وباكستان، بل وفي أوروبا وأمريكا ذاتها تضم الآلاف بل عشرات الآلاف. وسحبت فنزويلا سفيرها من تل أبيب احتجاجا على العدوان الهجى للجيش الصهيوني على لبنان.

إن حكام هذه الأنظمة الجائمة على صدور البلاد العربية الذين يفرطون في التعبير عن الاخلاص في خدمة "الأصدقاء" والبطش بالأعداء "أى شعوبهم" انما يظنون أن هذا الاخلاص والهيام الشديد بعشق "الأصدقاء" يضمن لهم البقاء في مقاعد السلطة طالما نالوا الرضا السامى من سادتهم. ومن الغريب - حقا- أن هؤلاء الحكام لم يجدوا الى جانبهم من ينكرهم بدروس التاريخ من أول حكاية الباشمهندس سنمار الذى كافأه النعمان بن المنذر على بنائه لقصر بديع بالقائه من فوق القصر ليلقى حتفهجزء لخدمة سنمار، لايجد هؤلاء الحكام من ينكرهم بقصة الشاه محمد رضا بهلوى الذى خدم أمريكا واسرائيل معا فى عصر الحرب الباردة خدمة من أجل الخدمات، وحول بلاده كلها الى قاعدة عسكرية متقدمة للدفاع عن المصالح الأمريكية، ووقف الى جانب الغرب ضد حركة التحرير الوطنى العربية بزعامة جمال عبد الناصر، واستولى على الجزر الثلاث بالخليج لتحسين الأداء الاستراتيجى لخدمة مصالح أسياده، ولعب دورا مهما فى التخفيف من معاناة الغرب عندما استخدم العرب سلاح النفط عام ١٩٧٣ فأطلق طاقات الضخ الإيرانية الى حدها الأقصى لتعويض جانب من النقص فى سوق النفط الغربى، وقمع شعبه وأثله وتوسع فى الزج بالأحرار فى السجون والمعتقلات، وعندما انفجر بركان الثورة ضده وخرج من بلاده مذعورا يلتمس من "الأصدقاء" رد الجميل لم يسمحوا له بدخول بلادهم، رغم أنه كان مريضا يحتاج الى إجراء جراحة نقيفة، فلم يجد صدرا حنونا سوى الرئيس السادات الذى كان يعتقد أن الفرصة قد سحقت ليلعب دور "الصدوق لأمريكا" فأدى لهم هذه الخدمة غير المباشرة.

ولم يجد الحكام حولهم من يروى لهم (أو ينكرهم) بقضية السادات نفسه التي انتهت بتصفيته بعد أن أنجز المهمة التي كانت مطلوبة للأصدقاء، صحيح قتله تنظيم الجهاد، ولكن كل من درسوا ظروف الاغتيال يرون وراءها ظلال تدبير جهاز مخابرات رفيع المستوى لعله اخترق تنظيم الجهاد واستخدمه فى التخلص من رجل أصبح يمثل عبئا عليهم.

والملفات كثيرة، ملفات الحكام العملاء الذين أخلصوا في خدمة الأصدقاء ثم تركهم "الأصدقاء" يسقطون تحت نعال شعوبهم،
ماركوس في الفلبين، وسوهارتو في أندونيسيا والعديد من النماذج في أمريكا اللاتينية من هذا الصنف الواطئ من الحكام الذين
كانوا مجرد مناديل ورقية استخدمتها أمريكا في مسح كل القاذورات التي تخرج منها، وعندما لم تجد فيهم نفعاً أُلقت بهم في سلة
المهملات ليستقر بهم المطاف في مقلب زبالة التاريخ، وهو المصير المرتقب لحكامنا الذين لا يريدون إلا أن يظلوا مجرد
مناديل ورقية.